ظاهرة الصراع النفسي في قصص الدكتور طه حسين

بقلم الدكتور

طاهر عبد اللطيف عوض

أستاذ الأدب والنقد المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين - القاهرة

جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

قام نتاج د . طه حسين القصصى على مواقف تتصارع فيها قوى نفسية وأخلاقية متعارضة مع تعمقه فى أغوار النفس البشرية ، فالصراع بينهما هو الجانب الجوهرى الذى اعتمد عليه أكثر من اعتماده على عناصر القصة الأخرى ، وذلك بعد أن أصبحت القصة الفنية الحديثة فناً إنسانياً خالصاً ، يقوم الصراع فيها بين عناصر النفس المختلفة ، فيعرف بالصراع الداخلى ، أو بين إرادات الشخصيات وآرائهم وعواطفهم ، فيعرف بالصراع الخارجى ، وإن كان الصراع الداخلى هو الأغلب الأهم ، والأكثر تأثيراً وإثارة وعمقاً فى القصة .

واتخذ د . طه حسين من الصراع الإنسانى مع نزعاته النفسية مادة أساسية لقصصه ، ويلقى أضواء على حياة نماذج من الناس ، وإن لم يهتم بسرد الأحداث بقدر اهتمامه بالتحليل النفسى للشخصيات ، وجعل العقدة فى غالب قصصه تعتمد على صراع النزعات والأفكار وليس على الأحداث ، ولعل مرجع ذلك ميله إلى المذهب الواقعى القائم على التحليل النفسى ، والنزعة الاجتماعية الناقدة والمصورة لمواقف القوة أو الضعف عند الإنسان ، ومحاولة إلقاء الأضواء على زوايا من الحياة حافلة بألوان المفارقات .

ومن ثم كانت قصص د . طه حسين ترتبط بالحياة أشد الارتباط ، لأنها تتصل اتصالا مباشراً بمشكلات الحياة التى يحياها الناس وتتمثل فى النفوس البشرية ، وبذلك كانت القصة عنده مستودعا يزخر بتقلبات النفوس ، وما يدور بداخلها فى مواجهة صروف الحياة ، عارضاً ذلك بقدرة فنية تتراءى فيها الشخصيات والأحداث ، وظل دائماً محتفظاً بحرصه على أن يكون التحليل النفسى من خلال الأحداث والتصرفات التى يرصدها ،

فلا يتفلسف ولا يبالغ ، ولا يجاوز فى تحليله حدود تلك النفس البشرية المركبة المعقدة ، يغوص فى أغوارها السحيقة ليرينا رأى العين طبائع الناس فى كل زمان ومكان .

ومن خلال الدراسات التحليلية والنقدية لبعض قصصه نحاول أن نكشف النقاب عن مدى توفيقه فى هذا التحليل النفسى وتصوير صراع الشخصيات والكشف عن الخصائص الإنسانية الدفينة ، وإلى أى مدى استطاع أن يرسم بريشته الفنية صور الصراع النفسى لها .

لقد نجح د . طه حسين فى قصتيه « دعاء الكروان » و « الحب الضائع » فى أن يعطينا تحليلا دقيقاً للنفس البشرية فى نوازعها الخفية ، وتشريحاً للأفكار التى تساور كل إنسان ، دون أن يستطيع مواجهتها فى صراحة على حين أنها تصطرع دائماً فى كل نفس .

أولا : أجرى صراعاً نفسياً يتقابل فيه العقل والضمير مع العاطفة والهوى ، فبلغ من التأثير مبلغاً رائعاً ، لأن مبادىء الأخلاق التى صورها لدى شخصيات هاتين القصتين كانت شيئاً مستقراً فى أعماق نفوسهم من حيث تستقر أيضاً المشاعر والعواطف والشهوات ، فكان الصراع النفسى ينشب كلما تعارض نداء القلب مع صوت الضمير ونداء الواجب ، فازدادت شخصياته قوة وجاذبية وإثارة للمشاعر الإنسانية .

ثانياً : أتاحت له ظروف شخصياته أن يصور ألوانا عاتية من الصراع الذى يضطرم فى نفوسهم - بين الخيانة والوفاء ، وبين الانتقام والتسامح ، وبين الواجب والعاطفة ، وبين الكراهية والحب ، إلى غير ذلك من النزعات البشرية - فعمق ذلك الصراع النفسى للشخصيات واستغل المشاعر التى كان من الطبيعى أن تولدها الظروف فى نفوسهم .

كانت آمنة - بطلة رواية « دعاء الكروان » هى التى دارت حولها

الأحداث من خلال مأساة أختها من أقوى الشخصيات التى جاء بها د . طه حسين فى قصصه ، فقد استطاع أن يخلق منها شخصية غنية العناصر جاشة الحركة بفضل تلك الانفعالات التى تتصادم فى نفسها ، وأن يجعلها أكثر حيوية ، وأن يوسع آفاقها وأن يجعل منها ساحة لصراع نفسى عميق .

لقد وضعها د . طه حسين فى سلسلة من الصراعات بدأت عندما تذكرت أمها وما نكبت به فى ماضيها وحاضرها ، فنجد أول خيوط الصراع الدرامى الذى نلمحه فى « دعاء الكروان » واضحة كما صورها د . طه حسين كان « لآمنة » البطلة الرئيسية التى دارت حولها الأحداث من خلال مأساة أختها « هنادى » وذلك عندما وضعها د . طه حسين بين مواقف تكشف عن جوانبها المتعددة .

وأول المواقف التى أثارت انفعالاتها وصراعها النفسى من أجل الآخرين تأثرها تجاه أمها بعد أن نكبت فى ابنتها « هنادى » فتتأجج مشاعرها وتمور نفسها عندما تتمثل لها هذه الأم وما تحمله من مآسى الماضى والحاضر وما تتخوفه من دواهى المستقبل المظلم ، فنراه يصور تلك الخواطر التى تختلف على نفسها ، وما يضطرب فيها من معان كثيرة ، تدور حول أمها حين تقول :

« هذه النيران التى تحرق قلب المرأة حين تحب ، فلا يسعفها الحب ، ولا تلقى ممن تحب إلا خيانة وخداعا وغدراً وأنها لفى ذلك محزونة لأمها ، يائسة من غدها ، معرضة عن يومها ، وإذا الحياة تتكشف لها عن خطب جديد ثقيل ، ليس أقل نكراً ولا أهون أمراً من تلك الخطوب التى لقيتها فى حياتها الماضية ، فهى تنظر وراءها فلا ترى إلا ظلمة ، وتنظر أمامها فلا ترى إلا ظلمة ، وتنظر عن يمين وشمال فلا تجد عونا ولا نصيرا »[1] .

---

(١) دعاء الكروان ، ص ٣٠ ، ط ١٥ ، دار المعارف بمصر .

وهذه النزعات التى كانت تحتدم فى قلب «آمنة» من الشعور بالعجز والحيرة والحزن تتحول إلى نزعة أخرى مع أمها وعالمها وإحساسها بالكراهية والبغض بعد مصرع أختها . وأصبحت لاتطيق رؤيتها حتى فى أشد لحظات حنوها عليها وهى تقوم بتمريضها ، فهى تخشى أن تقتلها ، وهذه صورة لما كانت تعانيه من اشمئزاز .

« هذه أمى ؟ ! ، يا للهول ما أسمح هذا الوجه وما أقبح هذه الصورة ، وما أشد بغضى لهذا المحضر ! إنها لتدنو منى ، وإن الدم ليجمد فى عروقى لمقدمها . إنها لتضع على رأسى خرقة مبللة ، وإنى لأجد لبرد الماء شيئاً من الراحة ، ولكن لينصرف هذا الوجه فإنى أكره أن أراه[1] » .

ثالثاً : كان يعمل على أن يطور الصراع ويدرجه عند شخصياته ، ومن خلال هذا الصراع يرسم المعاناة النفسية التى نشأت عن الصراع وجاهدتها الشخصيات وصارعتها ، والتى نجمت عن ظروف معقدة متشابكة فى تسلسل زمنى متتابع ، بحيث يجعل القارىء دائما فى يقظة تامة مع الشخصيات « فآمنة » تحولت عن كل شىء إلا عن أختها التى استغرقت كل تفكيرها واهتمامها ، فهى تتعاطف معها تحنو عليها وتلتمس لها المعاذير لخطئها ، وتحاول أن تصل إلى نفسها .

وتتصاعد الأحداث « بآمنة » لتنقلها إلى موقف آخر تجيش فيه خواطرها ويضطرم قلبها ، وتثور نفسها ، وذلك بعد هربها ، وانطلاقها وحيدة فى الطريق ، لقد فرت من بيت أسرتها وليس فى بالها إلا أن تخلص من هذه البيئة التى لم تعد تستطيع فيها مقاما ، وتفلت من خالها هذا الشيطان المريد الذى توشك أن تقع فى براثنه إن أقامت أياما ، واندفعت فى الفرار هائمة ، لا تلوى على

---

(١) المرجع السابق ص ١٨١ .

شيء ، نحيلة هزيلة ، بائسة كئيبة لا تدرى أين ينتهى بها المسير ؟ ، وحينئذ استبدت بها الهواجس وأثارت فى أعماقها هذا الصراع النفسى الرهيب .

« إلى أين تذهبين ؟ ألم تفكرى فى هذه الكوارث والخطوب التى تضمرها الحياة للضعفاء والبائسين ، وللضعيفات والبائسات خاصة ، وتتكشف عنها شيئاً فشيئاً ، فإذا هى مصدر خصب للشر والضر ، وينبوع غزير للسيئات والآثام[1] » .

وبعد هذا استطاع د . طه حسين بمهارة أن يرسم الصراع الذى كان يعتلج فى نفس « آمنة » وهى تفكر فى هذا الشاب الذى أغوى أختها ، وحين اعتزمت على الانتقام منه ، وأخيراً عندما وقعت فى حب عدوها هذا الذى أحبها وأحبته ، ثم يصل الصراع النفسى إلى قمته فى آخر المواقف التى عاشتها « آمنة » عندما أذهلتها المفاجأة فكانت تحدث نفسها وروحها وهى تتعجب لما حدث .

« كلا ! كلا ! فكرى يا آمنة ، فقد آن لك أن تفكرى واعزمى فقد آن لك أن تعزمى ، أقيمى كما تقيم العاشقة أو ارتحلى كما ترتحل الغالية ، فأما هذه الحياة المعلقة فليس لأحد فيها خير ولا حد فيها عناء ولم يبق لك إلى احتمالها من سبيل ! لأنى احتفظت دائما بعقلى ولم يخرجنى الحب كما لم يخرجنى البغض ، ولم يخرجنى الأمل كما لم يخرجنى اليأس ، عن طورى فى لحظة من اللحظات »[2] .

رابعاً : كان يستخدم الوصف فى بعض الحالات داخل الحوار ، كوصف « آمنة » للطريق والقرية عندما كانت تحبب أختها فى فكرة الرحيل ، مع أنها تمقته وتخفى ما تجد بسببه من الكآبة وضيق الصدر ، ولكنها جعلت تزينه والصراع محتدم فى نفسها بينما هى مضطرة أن تتظاهر به أمام أختها ، وما هى مضطرة أن تدفنه تحت جوانحها وهى تصور هذا الصراع .

(١ ، ٢) المرجع السابق ص ١٩٨ ، ١٥٨ .

« أنا أزين لها هذا كله بلساني ، وأتكلف لها مظهر المرتاحة له المغتبطة به المقبلة عليه فى سرور ولذة وشوق والله يعلم إن كنت لمحزونة أشد الحزن ، مبتئسة أشد الابتئاس ، تنازعني نفسي إلى ما وراءنا نحو الشرق من هذه المدينة الكبيرة التي ترامت أطرافها وامتدت على ضفة النيل هادئة وادعة ناعمة بما فيها من حضارة وترف[1] » .

فقد تبين أن « آمنة » كانت تجاهد ما استطاعت لترغب أختها فى ترك المدينة والعودة إلى القرية ، وتتقلب فى محاولاتها لإقناع أختها ، فى أحوال كثيرة بين الشدة والعنف واللين واللطف ، وهى على ذلك كله تكره حتى مجرد أن تأتى فكرة الرحيل على بالها .

ثم بلغ مبلغا رائعا فى تصويره لصراع « آمنة » وهى مريضة فى بيتها تعانى آلام الحمى ، ثم أثناء هروبها وهى وحيدة فى الطريق ، تصويرا ناجحا يحزننا ويثير فى النفس الكثير من التأملات الأخلاقية والإنسانية . فبعد مصرع أختها أصبحت عليلة لا تفرق بين المرض والصحة ، ولا بين النوم واليقظة ، ذاهلة ذابلة ، تغرق فى الأحلام المروعة الرهيبة وسط الأشباح ، والينابيع التي تفجر الدم ، وتتخيل أختها وقد تحولت إلى ظل مع الفتيات اللاتى صرعن قبلها ، حول الينبوع .

ونجده فى قصة « الحب الضائع » يصور صراع الزوجة « مدلين » وما كان يدور فى عالمها الداخلى وما يضطرب فيه من الجد والشك والخوف والغيرة والحيرة ، عندما وضعها بين مواقف ومشكلات تكشف لنا عن جوانبها المتعددة وترسم معالم الشخصية الإنسانية التي تتجاذبها المشاعر والأحاسيس ، والدوافع الخيرة والشريرة والنوازع الرفيعة والوضيعة .

فالزوجة تتعرض لخيانة زوجها مع أعز صديقاتها ، فماذا كان مظهر

---

(١) المرجع السابق ص ٥٣ .

صراعها ؟ إن د . طه حسين يضعها فى موقع الشعور بالوحدة والحيرة لأنها لا تدرى إلى من تشكو همومها وأسرارها .

وهى تحاول أن تبرر أسباب خيانة زوجها وصديقتها لها ، ويصور صراع الصديقة « لورنس » بين وفائها لصديقتها واستسلامها لعاطفتها ، وسعادة الزوجة عندما رحلت الصديقة عنهما وعاد زوجها إليها ، وعندما كانت فى أعلى مراحل اليأس والانهيار ، وقد توقف عقلها عن التفكير وتصور كيف وقع النبأ على قلبها الحزين ، وما تسبب عنه من اليأس ، والحسرة ، وخيبة الأمل بسبب خيانة صديقتها ، تلك الصديقة التى كانت تعدها رمزاً للوفاء . . ثم تحطم هذا الرمز فتردد ما يدور بداخلها .

« ليت النبأ الذى حمل إلى عودتك إلى أرض الوطن ألقى إلى سمعاً سهلا نقيا ، إذن لأسرعت إليك ولأديت بين يديك بعض ما كان ينبغى أن أؤدى من الفكر والوفاء ، ولكنى عرفت عودتك مصادفة وأى مصادفة ! هذا المعبد الذى كنت أقمته فى قلبى قد تهدم ، وهذه الصورة الجميلة التى رسمتها لنفسك فى أعماق ضميرى قد درسها المسخ والتشويه ، واستحالت إلى صورة مخيفة بشعة ، تروعنى وتملأ نفسى هلعاً وجزعا »[1] .

وكان صراع الزوجة يلائم شخصيتها فى القصة لأنها صورت على أنها امرأة قوية الإرادة عاقلة ، مالكة لنفسها مسيطرة على عواطفها ، حين تعرض لها المشكلة لا تعنى بحلها ، وإنما تعنى بتفسيرها ، وتأويلها قبل كل شىء ، فإذا وصلت إلى ما تريد اطمأن قلبها وأذعنت للقضاء .

وقد صور د . طه حسين كلا من « آمنة » و « مدلين » و « لورنس » وقد تغلبن على المشكلات التى تعترضهن ، بنفاذ البصيرة وتحكم الإرادة

---

(١) الحب الضائع ، ص ٩٦ ، ط ١٠ ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٤ م .

والسيطرة على الأهواء ، فالعقل يفكر ، والإرادة تنفذ ، والأهواء تداس ، صراع بين الواجب والعاطفة ، بين العقل والأهواء ، صراع بين الثورة والخضوع ، بين التمرد والاستسلام .

خامساً : عمل على أن يعمق ذلك الصراع الذى يحتدم أواره بين النفس البشرية ، وذلك عن طريق إنطاق شخصياته بما يفصح عن هذا الصراع بوساطة أدوات منها : المناجاة والاتهام[1] .

« فالمناجاة : كما فى رواية « دعاء الكروان » عندما وجدنا « آمنة » تخلو إلى نفسها وتنفض مكنون نفسها وتظهرنا على جراحها الخفية وآلامها الدفينة بواسطة مناجاتها « الكروان » .

ود . طه حسين بذلك أعطى شخصيتها مجال التحدث عن نفسها ، مما ساعد على التعبير عن انفعالاتها فى مواقفها المختلفة التى تمر بها ، وساعد فى الوقت نفسه على تطور الموضوع ، وتوضيح ما يضطرب فى عالمها الداخلى من القلق والحيرة والخوف من المستقبل إلى آخرة تلك الاضطرابات التى تمر نفسها بها .

والاتهام : كما فى « الحب الضائع » فقد أطلعنا د . طه حسين على التمزق النفسى للزوجة « مدلين » عن طريق تحدثها بما يضطرب فى نفسها إلى دفترها الذى كانت تثق به .

سادساً : ظهر عنصر التوقع والمفاجاة فى سلوك الشخصيات فى القصة ، وهو جانب هام من جوانب الصراع ، وبه تكتسب الشخصيات تفاعلها وحيويتها .

رأينا فى « دعاء الكروان » قتل الأب ، وطردت الأم وابنتاها « آمنة »

---

(١) النقد الأدبى الحديث ، ص ٥٤٩ .

و « هنادى » من القرية ، فيرحلن إلى المدينة ، ثم تحدث المأساة التى حولت مجرى الأحداث بقتل « هنادى » لتأتى المفاجأة بهروب « آمنة » وعزمها على الانتقام لأختها من ذلك الفتى لنرى المفاجأة الكبرى المتوقعة عندما تحولت من التفكير فى انتقامها من عدوها إلى حبه . وفى الحب الضائع وجدنا «مدلين» وهى تمر بعدة مواقف لتصارع مشكلاتها ، وقد ظنت أنها تغلبت عليها حتى تفاجأ بأمور لم تكن تتوقعها .

سابعاً : ظهرت الأحداث بصورة مركزة فى « دعاء الكروان » حول شخصية « آمنة » ، وفى «الحب الضائع» حول الزوجة « مدلين » وفى « المعذبون فى الأرض » فى القصتين المعنونتين باسم « صفاء » و « خديجة » بحيث تعلقت بهن الأفكار والشخصيات الأخرى ، بما نتج عنه وحدة الاهتمام ، ووحدة الشعور بالشخصية .

ثامناً : أتاح « لآمنة » أن تروى الأحداث ، وتمزق ستائر الحجب عن نفسها ، وكانت الزوجة «مادلين» تروى الأحداث أيضا من خلال مذكراتها .

« فمن العيب فى القصص الحديث أن يتدخل المؤلف تدخلا سافراً بالشرح والتعليل ، مستقلا فى ذلك عن الحوار والحديث النفسى . فينبغى أن يكون تدخله مستوراً . وفى أضيق الحدود ، كأن يقصد فى تدخله إلى الغوص فى أعماق شخصيته ، والكشف عن الوعى الباطنى لبطل من أبطاله ، فى إجمال يملأ به فجوة يريد الكاتب أن يمر بها دون تفصيل »[1] .

تاسعاً : جاءت الصورة التى رسمها للحدث أو الموقف يكسوها شىء من التخيل الطفيف، مثل اشتراك الكروان مع بطلة القصة فى الآلام، وفى الحوار، فكان الكروان فى الرواية يمثل اللا شعور ، وعقد النفس المكبوتة ، وله

---

(١) المرجع السابق ، ٥٥٠ .

لون شاعرى أدنى حين يثير الذكريات ، وكان يمثل الماضى الثائر ، وصراع الجسد والغريزة مع الضمير وحب الانتقام الأحمق .

وعندما ننتقل بدراستنا التحليلية النقدية لقصتى « شجرة البؤس » و « المعذبون فى الأرض » .

نلحظ أنه كان سطحيا فى تصوير الصراع الذى يدور داخل شخصياته ، فلا يثير الانفعالات القوية أو التفكير العميق فى نفس القارىء على النحو الذى رأيناه فى « دعاء الكروان » و « الحب الضائع » ومرجع ذلك لما يلى :

أولا : أنه أجرى الصراع بين العوامل النفسية والعوامل الأخلاقية ، وقد لا يكون هذا الاختيار فى مبدئه سبباً لعدم تعمقه فى الصراع ، فقد اعتمد فى « دعاء الكروان » و « الحب الضائع » على الصراع بين المشاعر والأخلاق بين الحب والواجب ، ومع ذلك بلغ من التأثير والقوة مبلغاً رائعاً فيهما ، ولكنه لم يسلك فى « شجرة البؤس » و « المعذبون فى الأرض » ما سلكه هناك فى تخير المبادىء الأخلاقية التى يدخلها فى صراع مع العواطف البشرية فالأخلاق التى استند إليها فى « دعاء الكروان » و « الحب الضائع » ترجع فى جوهرها إلى مايسميه علماء الأخلاق « أدب الرياضة والاستصلاح » أى أدب رياضة النفس على الخير والحق والجمال واستصلاحها على أساس قيادة الضمير »[1] .

أما « شجرة البؤس » و « المعذبون فى الأرض » فإن مبادىء الأخلاق فيهما تستند إلى ما يسمى (بأدب المواضعة والاصطلاح) أى ما تواضع عليه المجتمع من عادات وتقاليد لا تغوص جذورها فى الضمير الفردى ، ولا تلقى جزاءها من وخزات ذلك الضمير ، بل تستند إلى رأى الجماعة فى الفرد وحكمهم عليه ومدى سيطرته على الفرد »[2] .

(١ ، ٢) مسرحيات شوقى ص ٤٧ ، ٤٨ .

وهذا واضح فى شخصية (أم خالد) فى « شجرة البؤس » فهى لا ترفض زواج ابنها (خالد) من (نفيسة) لا لأن ضميرها يأبى ذلك ، بل لأنها تخشى الناس وتستحى أن تقدم إليهم عروس ابنها دميمة الشكل . و (خالد) و (نفيسة) يشقيان نتيجة للتقاليد التى أجبرتهما على الزواج .

و (صفاء) و (خديجة) فى « المعذبون فى الأرض » ، (صفاء) على الرغم من حبها العنيف لجارها تقبل الخاطب الجديد ، لأنها تعلم أن أهلها يرحبون به ، وسيرفضون هذا الجار لأنه فقير ، و (خديجة) ترغم على قبول الزواج فى ظل التقاليد فهى فقيرة والخاطب غنى .

ثانياً : لم يعمق د . طه حسين الصراع الذى أجراه بين المشاعر الإنسانية والأخلاق الاجتماعية ، ولذلك لا نجد لدى شخصياته (أم خالد ، خالد ، نفيسة) ، (صفاء ، خديجة) صراعاً حقيقياً عنيفاً كصراعات بطلاته فى « دعاء الكروان » و « الحب الضائع » بل نجد نهايات سريعة سهلة ، فلا نلمح تمزقا داخليا يهز مشاعرنا ولا آثاراً قوية لذلك الصراع ، وعلى العكس من ذلك يمر هذا الصراع مروراً هينا .

(فأم خالد) ترفض زواج ابنها ، ويحتدم الصراع فى نفسها بين منع هذا الزواج وبين خوفها من عدم (طاعة) وأمر (الشيخ) الذى أمر بهذا الزواج . واقتصر دورها على اقتناعها بما أعلنه لها زوجها من أن هذا الزواج قضاء قدره ـ الله ـ ولا يستطيع أن يمنعه أحد ، فكتمت أمرها ، ولم تستطع أن تفصح عن رأيها أو تتكلم .

و (نفيسة) كانت تشقى بصراع داخلى لقبح صورتها ، ولخوفها من أن يتزوج زوجها بامرأة غيرها ، ولكنها لم تفعل شيئاً يظهر إيجابيتها مع هذا الصراع ، بل انطفت على نفسها حتى أصابها الجنون ، وذلك عندما بدأت

الخواطر تلح عليها وتمزقها بقدوم ابنتها الأولى الجميلة ، وأخذها (خالد) بين ذراعيه ، وقارن بينها وبين أمها ، ثم اتجه إليها بكلماته التى وقعت من قلبها موقع الخنجر حين يطعن به عدو عدواً ، لقد أحست بأنه يكرهها وأنه ينظر إليها وكأنها عدو له فكانت تحدث نفسها :

« بأنها لم تختر لنفسها صورتها البشعة ومنظرها القبيح ، ولم تدع خالداً ليكون لها زوجاً ، بل لم تعرفه إلا حين أدخل عليها . ثم هى لم تمنح إحدى ابنتيها جمالا رائعاً ، ولم تمنح الأخرى قبحا مخيفا ، ثم هى لم تؤذ زوجها فى نفسه ولا فى بيته ، ولم تخالف أمره ، ولم تسمعه ما يكره من القول ، ولم تكلفه ما لا يطيق من الأمر ، ثم هى لم تدع المرض إلى نفسها ، كما أنها لم تدع القبح إلى وجهها »[1] وليس بمعقول أن لا يكون لهذه الجراح أثر عميق فى نفسها .

وعلى هذا الغرار كانت حال (خالد) فقد أتاح د . طه حسين لشخصيته المجال لكى يحتدم الصراع فى نفسه منبثقاً من عدة مواقف بعد زواجه من نفيسة : من اكتشافه لبشاعة صورتها ، ثم إنجابها لطفلتين إحداهما جميلة رائعة المنظر ، والثانية قبيحة ، ومقارنة (خالد) بينهما ، وبين أمهما ، ثم تفكيره فى طلاق امرأته وزواجه بأخرى ، وصراعه بعد أن جنت زوجه ، ثم صراعه من أجل حياته الفارغة التى يحياها بدون عمل ، وهو أكبر صراع كانت تموج به نفسه .

ومع كل هذا لم يعمق د . طه حسين هذه الصراعات فى نفس (خالد) حتى يكون له دور إيجابى فى أى من هذه المواقف .

و (صفاء) لا نرى أثراً لتمزق نفسها بالصراع ، ولا نحس أنه تغلغل إلى

---

(١) شجرة البؤس ص ١٠٢ الطبعة ١١ دار المعارف بمصر .

أعماق ضميرها كما تتغلغل فى نفسها حبها لجارها ، وبذلك لم يحدث ما كنا نتوقع له من صراع عنيف يثير شجوننا ويحرك نفوسنا أو تفكيرنا ، نرى أن أسرتها ترغمها على قبول هذا الزواج فيثور قلبها ولكن لا نرى لها انفعالا غاضباً أو ثورة .

« وصفاء ترضخ للأمر عندما يشتد عليها الإلحاح ويكثر حولها الإغراء بألوان الترف وفنون الهدايا ، ورضيت بنصف نفسها وسخطت بنصفها الآخر ، فكانت تمنح الخطبة والزواج ابتساما ظاهراً ورضاً يكاد يشرق له وجهها أحيانا ، وكانت تمنح الحب حزنا دخيلا وأملا دفينا ، ودموعها لعلها أن تنهل حين تخلو إلى نفسها »[1] . تعلن الرفض ، وقد يلتمس العذر فى ذلك للمؤلف بأن هذا الصراع الهادىء المستسلم هو الملائم لشخصية صفاء ، لأن د طه حسين صورها أقرب إلى السذاجة والصراحة والوضوح ، وقد جاء على لسانها فى القصة أنها تقول : (ما اجتماع الفقر إلى الفقر) . (وأن الحب لم يخلق للفقراء) . وحتى هذا الجار الذى أحبته لم يستغل د . طه حسين مشاعره ولم يعطنا صورة لصراعه الخلقى الذى دفعه إلى أن يفكر فى قتل محبوبته .

و (خديجة) كانت ترفض الزواج بسبب ما تجده فى دخيلة نفسها من زهد وتعفف ، ولا ترى لها انفعالا أو ثورة يعبران عن رفضها الزواج بحيث يثير هذا الانفعال تفكير ومشاعر القارىء حتى تلهث أنفاسه ويرتفع انفعاله .

ثالثاً : على أن عدم تعمقه للصراع فى نفوس شخصيات قصتيه « شجرة البؤس » و « المعذبون فى الأرض » يرجع إلى أن الأحداث كانت تطغى

---

(١) المعذبون فى الأرض ص١٤٦ ، ط ٣ ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٤م.

على تحليل الشخصيات وتصويرهما ، وذلك على العكس مما صنع فى « دعاء الكروان » و « الحب الضائع » ، فتحليل الشخصيات وتصويرها هما السبيل إلى خلق الصراع وتعميقه ، حيث يتجه المؤلف إلى بيان حال الشخصية فى موقف خاص وإبراز مايحيط بها من أخطار فى هذا الموقف ، وكيف تواجه هـذه الأخطار ، بما لديها من وسائل ، وما منحت من إرادة ؟ وبهذا كله يقودنا المؤلف إلى موقف إنسانى يكون فيه جهد الإنسان ذا معنى .

أما فى « شجرة البؤس » ـ خاصة ـ فقد تشعبت الأفكار فى موضوعها ، وتعددت فيها الشخصيات والمصائر حتى كادت وحدتها تختفى ولا يدركها القارىء من أول وهلة ، ولكنه حين يدقق النظر يرى وراء هذا التعدد محوراً ترتكز عليه وحدتها وهو النقد الاجتماعى للتقاليد السائدة القديمة واصطدامها بالحضارة الحديثة والوعى الاجتماعى الجديد .

رابعاً : جاءت معالم شخصيات قصصه « دعاء الكروان » و « الحب الضائع » و « شجرة البؤس » و « المعذبون فى الأرض » محددة المعالم ومواطن الضعف والنقص ، والقوة ، والكمال ، والدوافع والنزعات ، وبذلك تحققت الواقعية لتلك الشخصيات التى يصورها ، واكتسبت الحيوية والحياة ، ولم تصبح كأنها دمية جامدة صلبة ، لا تنفذ فيها سهام الضعف الإنسانى ، ولا شك أن الأساس الأول لجودة الشخصية فى القصة هو ألا تفقد صلتها بالعالم الحقيقى .

نتائج البحث

أولا : أن حتيمة التصوير النفسى فى قصصه نابعة من واقعيته وإحساسه بالعالم الذى يحيط به ، إنه لاينقلنا إلى عالم الخيال بل يقدم لنا شخصيات حقيقية ، فيكشف لنا عن جوانبها النفسية ويفسر سلوكها من خلال الظروف المحيطة بها . كان د . طه حسين ، من أوائل الذين استجدوا موضوعاتهم مما يجرى فى الحياة المحيطة بهم ، للتعبير عن الواقع من ناحية ، والتعبير عن الشخصية المصرية من ناحية أخرى ، فقد كان واقعياً فى صياغة هذه الموضوعات ، فلم يقيد نفسه بما افترضه النقاد لفن القصة من شروط وقيود ، وترك لنفسه الحرية فيما يأخذ منها وما يترك ، حتى يكون صريحاً فى تعبيره عن الحقائق ، بأسلوب شفاف لا يتقيد بشىء ولا يحجب عن القارىء الحقائق الواقعة ، فالقصص عنده تعنى بالقيم القصصية الأصلية من تصوير الشخصيات وتحليل العواطف ، أكثر مما يعنيه الالتزام الشكلى بما وراء ذلك من اشتراطات النقاد .

ثانياً : ظل دائماً محتفظاً بحرصه على أن يكون التحليل النفسى من خلال الأحداث والتصرفات التى يرصدها ، فلا يتفلسف ولا يبالغ ، ولا يجاوز فى تحليله حدود تلك النفس البشرية ، بل يغوص فى أغوارها السحيقة ، ليرينا رأى العين طبائع الناس فى كل زمان ومكان ، ومن هنا كان البناء القصصى عنده قائماً على مواقف تتصارع فيها قوى نفسية وأخلاقية متعارضة ، وكان الصراع هو الجانب الجوهرى الذى اهتم به أكثر من سواه من عناصر القصة الأخرى .

ثالثاً : نجح فى أن يحدد معالم شخصيات قصصه وأن يبين فيها مواطن الضعف والنقص أو القوة والكمال ، والدوافع والنزعات ، وبذلك تحققت

الواقعية لتلك الشخصيات التى يصورها . كما أنه حقق وحدة الاهتمام ووحدة الشعور بالشخصيات التى يصورها .

رابعاً : كان يستخدم الوصف أحياناً داخل الحوار مما ساعد على أن يكشف عن جوانب نفسية من الشخصيات ويفسر سلوكها من خلال ربطه بين تصوير البيئة وأحداث القصة والشخصيات ، ولكنه مع ذلك نجح فى أن يكون تدخله فى قصصه مستوراً ، وفى أضيق الحدود .

خامساً : نجح فى قصتيه « دعاء الكروان » و « الحب الضائع » نجاحاً عظيماً ووفق فى أن يعطينا تحليلا دقيقاً لصور الصراع النفسى فى نوازعها الخفية ، من حيث أجرى الصراع فيهما متقابلا بين العقل والضمير ، من جانب ، والعاطفة والهوى من جانب آخر ، وبذلك بلغ من التأثير مبلغاً رائعاً ، لأن مبادىء الأخلاق التى صورها لدى شخصيات هاتين القصتين كانت شيئاً مستقراً فى أعماق نفوسهم حيث تستقر أيضاً المشاعر والعواطف والشهوات ، فكان الصراع النفسى ينشب كلما تعارض نداء القلب مع صوت الضمير ونداء الواجب .

سادساً : أتاحت له ظروف شخصيات قصتى « دعاء الكروان » و« الحب الضائع » ومالها من أثر عميق فى حياتهم أن يصور ألواناً عاتية من صور الصراع النفسى الذى يضطرم فى أعماق نفوسهم بين الخيانة والوفاء ، وبين الانتقام والتسامح ، وبين الكراهية والحب ، إلى غير ذلك من النزعات البشرية التى يتقابل فيها الواجب والعاطفة . وجه اهتمامه إلى أن يطور الصراع ويدرجه عند الشخصيات وأن يرسم من خلال ذلك المعاناة النفسية التى كابدتها وجاهدتها هذه الشخصيات بسبب ما دار فى أعماقها من صراع .

سابعاً : حينما يكون هناك مجال واسع لصراع نفسى عنيف بين هوى

النفسى والواجب الأخلاقى ، يغلب الدافع الأخلاقى على العواطف النفسية وشهواتها متمشياً مع الواقع وما تقتضيه الأحداث ، كما رأينا فى شخصية (آمنة) بطلة (دعاء الكروان) عندما أحبت عدوها الذى كانت تريد الانتقام منه .

ثامناً : لم يحقق فى قصتى (شجرة البؤس) و (المعذبون فى الأرض) النجاح الذى رأيناه فى قصتيه السابقتين ، لأن مبادىء الأخلاق فيهما ترجع إلى ما تواضع عليه المجتمع من عادات وتقاليد لا تغوص جذورها فى الضمير الفردى ولا تلغى جزاءها من وخزات ذلك الضمير ، بل تستند إلى رأى الجماعة فى الفرد وحكمها عليه ومدى استجابة الفرد لرأيها وحكمها .

تاسعاً : لم يأخذ الصراع الذى احتدم لدى شخصيات هاتين القصتين حقه من العمق وكادت الأحداث فى القصتين تطغى على تحليل الشخصيات وتصويرها وهما السبيل إلى خلق الصراع وتعميقه .

المراجع

١ ــ الحب الضائع : د/ طه حسين ـ دار المعارف بمصر ط ١٠ سنة ١٩٧٤ م .

٢ ــ دعاء الكروان د/ طه حسين ـ دار المعارف بمصر ط ١٥ .

٣ ــ شجرة البؤس : د/ طه حسين ـ دار المعارف بمصر ط ١١ .

٤ ــ مسرحيات شوقي: د/ محمد مندور ـ مكتبة نهضة مصر ومطبعتها. ط٣.

٥ ــ المعذبون فى الأرض : د/ طه حسين ـ دار المعارف بمصر ط ٣ سنة ١٩٧٤ م .

٦ ــ النقد الأدبي الحديث : د/ محمد غنيمي هلال ـ دار الثقافة ، بيروت لبنان سنة ١٩٧٣ م .